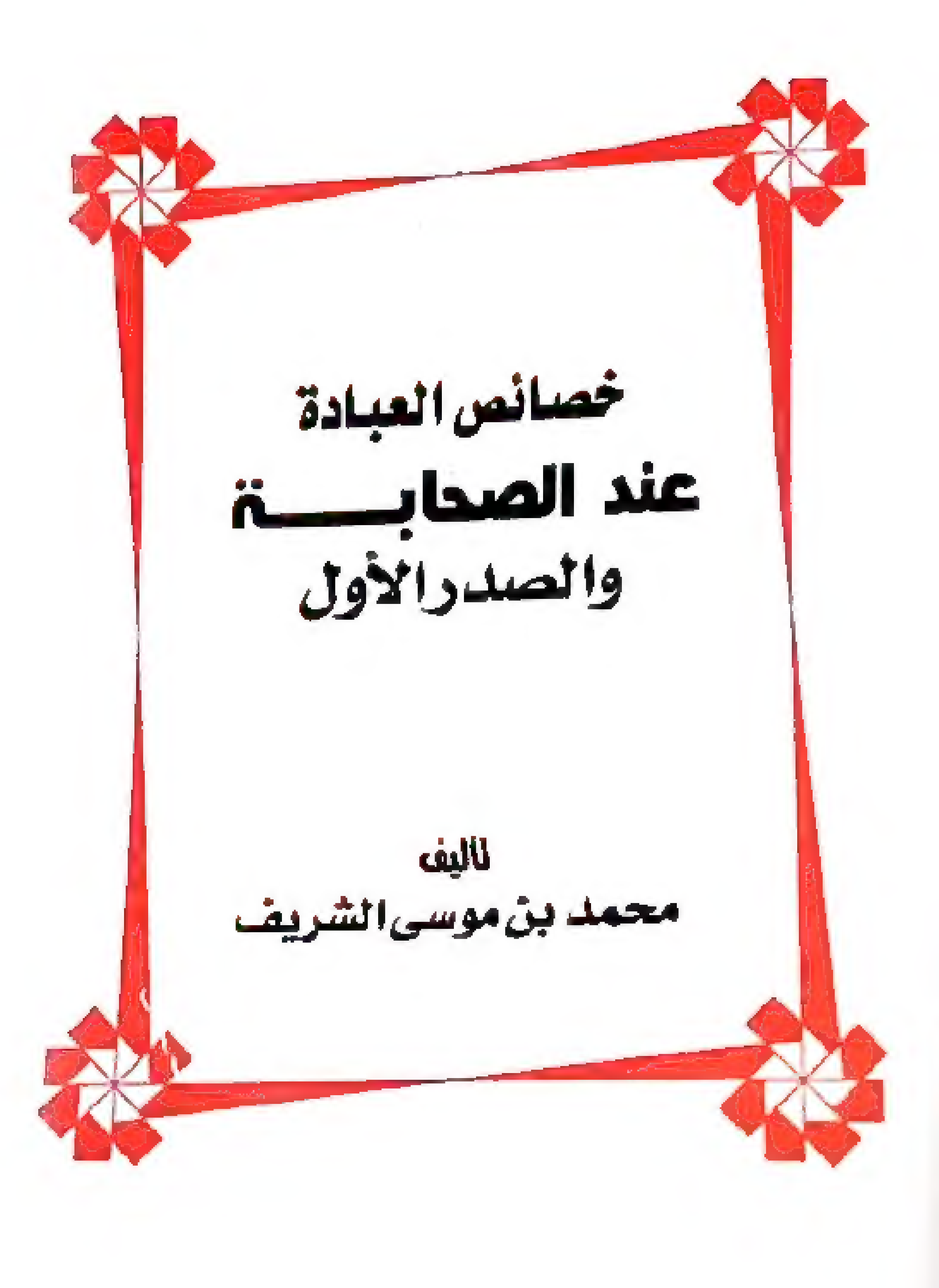
خصائص العبادة عند الصحابة والصدر الأول

د/ محمد بن موسى الشريف
المشرف على موقع التاريخ



خصائص العبادة
عند الصحابة
والصدر الأول

تأليف

محمد بن موسى الشريف

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الله - تعالى- خلق الخلق ليعبدوه، فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] بهذا قضى، وهذا هو الذي اقتضته حكمته، جل جلاله.

والعبادة هي المضمار الذي تسابق فيه المتسابقون، وتنافس فيه المتنافسون، كلٌّ يريد رضى الله - تعالى- ويعجل له، وقد جعل غايته من الحياة أن يفوز بالقدر الأعظم من العبادة على ما يحبه الله ويرضاه.

ولقد كان الرسول الأعظم ﷺ هو القدوة والإمام في هذا الباب، فقد عبد الله تعالى عبادة لم يعبدها أحد قط، وشرع لأصحابه ﷺ من العبادات ما يُرضون به ربهم ويستعينون بها على دنياهم، فلا جرم أن صاروا هم القدوة في هذا الباب، وأصبح غاية مَن جاء بعدهم أن يقتدوا بهم، وأن ينسجوا على منوالهم، وأن يسيروا سيرهم، فقد كانوا أحرص الناس على الاتباع وأبعدهم من الابتداع.

والمسلمون اليوم بحاجة ماسة للإطلاع على كيفيات وخصائص عبادة الصدر الأول من الصحابة لأسباب عدة منها:

أولاً: هم أقرب إلى رسول الله ﷺ منا، وأعلم بمراد الشرع من تشريع العبادات، وأعرف بما هو مسنون وبما هو مبتدع، فالاطلاع على عباداتهم والسير على هديها أمان للأمة اليوم من الوقوع في آفتي الغلو والابتداع في هذا الباب.

ثانيًا: إن كثيرًا من المسلمين اليوم لا يكاد يعرف طرائق عبادات الصدر الأول لقلة إقبال أهل العصر على القراءة، وقلة صبرهم على طولها وتشعبها، فكان من المهم البحث في هذا الجانب واستخراج ما يقتدي به أهل هذا العصر بأسلافهم، فليست حاجة أهل عصرنا إلى المغفرة والرحمة بأقلَّ من حاجة أسلافهم، وليست الدرجات العلى مقصورة على طبقة دون طبقة، والتشمير وبذل الجهد مشروعان لكل مسلم.

وفي هذا الزمان قَلّت عناية المسلمين بالعبادات التطوعية من سنن ونوافل، فالتهجد وقيام الليل وصيام النهار، والإكثار من القُرَب أمر يكاد يكون نادراً بين الشباب والشابات، فلعل الاطلاع على عبادات أسلافنا يكون محفزًا للخَلَف على الاجتهاد وبذل الجهد.

ثالثًا: إن ما صاحب عبادات الصدر الأول من الخشوع والخضوع، والانكسار والتذلل بين يدي الله تعالى وإتقان العبادة

وإحكامها، وإيفائها حقها، وإقامتها على هيئة تكاد تبلغ الغاية العليا من الإحسان، كل هذا نحن بأمس الحاجة اليوم إلى الاطلاع عليه، والتزود منه، ومحاولة الاقتراب منه، ذلك أن النبي الأعظم ﷺ قد يحتج محتج بأنه نبي مسدد مؤيد مُعان على شئون دينه ودنياه فهيهات أن نبلغ ما بلغ في العبادة وإحسانها، فكان الاطلاع على عبادات الصدر الأول -دونه ﷺ- إذن من الأهمية بمكان، فهم مثلنا يصيبهم ما يصيبنا ويعتريهم ما يعترينا من عوامل الضعف والفتور، فإذا تغلبوا عليها وأحسنوا عباداتهم فيمكننا أن نصنع صنيعهم وننسج على منوالهم.

رابعًا: إن الصدر الأول قد استعانوا بدينهم على دنياهم، وبعباداتهم على ضبط شئونهم وحل مشكلاتهم اقتداء بفعل النبي ﷺ الذي كان «إذا حزبه أمر صلى»[1] ، ونحن اليوم نعيش زمانًا مليئًا بالهموم والقلق والمشكلات فما أجدرنا أن نستعين بديننا على دنيانا، وأن نجعل عباداتنا إحدى أكبر الحلول لمشكلاتنا، والمذهبة لهمومنا وأحزاننا، وأن نصنع كما صنعوا، فإن فعلنا استقامت دنيانا وحسنت أمورنا، والله المستعان.

وفي هذه الوريقات سآتي على خصائص عبادة أولئك الرهط الأول، والصدر الأعظم ﷺ وسأحاول تبيين الجوانب التي ذكرتها آنفًا بأمثلة وصور من عباداتهم والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة وفي رواية: «كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»، وهو حديث صحيح.

قوة إلا به سبحانه.(١)

كتبه حامدًا مصليًا

العبد المذنب الضعيف

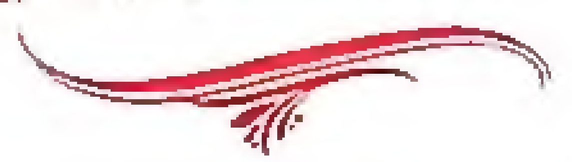
محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

---

(١) هذا البحث جاء استجابة لطلب مبرة آل البيت والصحابة في دولة الكويت، وذلك لتقديمه لمؤتمر «السابقون الأولون ومكانتهم لدى المسلمين» عقد في شهر المحرم/ ديسمبر من سنة ١٤٣٣/ ٢٠١١م.

خصائص عبادة الصحابة وآل البيت



لقد كان لعبادة الصدر الأول من الصحابة وآل بيت النبي ﷺ خصائص جليلة اختصوا بها، فمن ذلك:

أولاً: الحرص الشديد على إخلاص العمل:

والإخلاص هو أعظم العبادة، ورأسها وأعظمها عاقبة، وهو إن صلح صلحت سائر العبادات، وإن فسد فسدت، وإن ضعف ضعفت، والإخلاص في الطاعة مداره على ترك الرياء.

وقد كان السلف يصفون الإخلاص بأنه إكسير الأعمال، والإكسير هو مادة كان بعض القدماء يرى أنها إذا وُضعت على المعادن الخسيسة انقلبت نفيسة، وكذلك الإخلاص إذا صاحب العمل أكسبه نفاسة وجلالة وقوة.

والإخلاص درجات أعظمها أن يكون باطن الإنسان أعظم من ظاهره، وهو من العبادات القلبية التي تخفى عن الناس بل إن الملائكة لا يعرفون إخلاص العبد، فقد قال ﷺ:

«يؤتى يوم القيامة بصحف مُختَّمة فتُنصب بين يدي الله -تعالى-

يقول تبارك وتعالى: ألقوا هذه واقبلوا هذه.

فتقول الملائكة: وعزتك وجلالك ما رأينا إلا خيراً.

فيقول الله ﷻ: إن هذا كان لغير وجهي، وإني لا أقبل من العمل إلا ما ابتغي به وجهي»[(١)].

والإخلاص طريق للرفعة في الدنيا والآخرة، فقد قال النبي ﷺ:

«بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»[(٢)].

وقد حرص الصدر الأول على الإخلاص أيما حرص، فهذا عبدالله ابن عمرو وعبدالله بن عمر ﷺ يجتمعان فقال عبدالله بن عمر: إن الشيطان يجري بين ابن آدم مجرى الدم والروح، فبكى عبدالله بن عمرو وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه، وصغره، وحقّره»[(٣)].

---

(١) قال الحافظ المنذري، رحمه الله تعالى: رواه البزار والطبراني بإسنادين، رواة أحدهما رواة الصحيح: «الترغيب والترهيب»: ١/ ٧٣.

(٢) قال الحافظ الهيثمي، رحمه الله تعالى: أخرجه الإمام أحمد، ورجاله رجال الصحيح: «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٢٢٣.

(٣) قال الحافظ الهيثمي، رحمه الله تعالى: أخرجه الإمام أحمد، والإمام الطبراني، وأحد أسانيد الطبراني في الكبير رجالها رجال الصحيح: «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٢٢٥.

وهذا السيد علي بن الحسين[١] -رحمه الله تعالى- يدعو فيقول:

«اللهم إني أعوذ بك أن تُحسن في لوائح العيون[٢] علانيتي، وتقبح في خفيات العيون سريرتي».[٣]

وهذا الحافظ الكبير أبو هريرة ﷺ يُغمى عليه مرات عدة لحديث سمعه من النبي ﷺ في الإخلاص، فهذا التابعيّ شُفَيّ الأصبحي[٤] يحدث أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟

فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت:

أنشدك بحق وحق لَمَا حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته.

فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنّك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، زين العابدين، ثقة ثبت، عابد، فقيه، فاضل مشهور. قال الزهري: ما رأيت قرشيًا أفضل منه. توفي سنة ٩٣ رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٤٠٠.

(٢) أي ما يبدو للعيون.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٠٧.

(٤) هو شُفَيّ بن ماتع الأصبحي، أبو عثمان. مشهور في التابعين، وقد اختلف في صحبته. من حمير من اليمن. توفي في خلافة هشام بن عبدالملك. وانظر «الإصابة في تمييز الصحابة»: ٣/ ٣٢١.

وعَلِمته، ثم نَشَغ[1] أبو هريرة نِشْغة فمكث قليلاً، ثم أفاق، فقال:

لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نِشْغة أخرى،فمكث كذلك ثم أفاق ومسح وجهه، وقال:

أفعل، لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خاراً على وجهه، فأسندته طويلاً، ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ:

«إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول للقارئ:

ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟

قال: بلى يا رب.

قال: فماذا عملت فيما علمت؟

قال: كنت أقوم به أثناء الليل وآناء النهار.

فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت.

(١) أي أغمي عليه.

ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟

قال: بلى.

قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟

قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق.

فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت.

فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذاك.

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقال له: فيم قُتلت؟

فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك. فقاتلت حتى قتلت

فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت

ويقول الله - ﷻ - له: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك.

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: يا أبا هريرة: أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»[1].

(١) أخرجه الإمام ابن خزيمة في صحيحه كتاب الزكاة. باب التغليظ في الصدقة مراءاة وسمعة: ٤/ ١١٥-١١٦ بسند رجاله ثقات كما ذكر المحقق.

وجاء في «الترغيب والترهيب»: ١/ ٦٤، زيادة في آخر الحديث أنه قد دخل على معاوية رجل فأخبره بالحديث فقال معاوية: «قد فُعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننّا أنه هالك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشرّ، ثم أفاق معاوية وقال صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١١٥، ١١٦]».

* * *

ثانياً: الاتباع وعدم الابتداع:

إن العبادة المقبولة هي التي توافر لها شرطان:

الاتباع، والإخلاص، وقد قال الفضيل بن عياض[1] - رحمه الله تعالى - في قوله سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]:

هو أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟

فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

* * *

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي. الزاهد المشهور أصله من خراسان، وسكن مكة. ثقة عابد إمام مات سنة ١٨٧ رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٤٤٨.

ثالثًا: الشمول:

فهم الصحابة ﷺ أن العبادة تعم أحوال المسلم كلها، وأنهم إذا نووا في المباحات التي يأتونها وجه الله -تعالى- والتقرب إليه انقلبت إلى عبادات، وهذا مصداقه في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وما أحسن تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى[(١)]- للعبادة بقوله:

«هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[(٢)].

وهذا الشمول هو ميزة عظمى لدين الإسلام ينفرد بها عما سواه، ويعلو بها على ما عداه، فقد جعل العبادة أمراً شاملاً لمنافع الدنيا ودرجات الآخرة، فلم يجمد على العبادات فقط جمود النصارى -المحرف دينهم- في صوامعهم وأديرتهم، ولم يفضل عليها الدنيا وأطماعها فِعْلَ اليهود المغضوب عليهم، إنما شملت العبادة في الإسلام

---

(١) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، يُدعى لجدته تيميّة. أحد أئمة المسلمين المجتهدين. توفي -رحمه الله- سنة ٧٢٨ بدمشق مسجونًا بعد أن خلف علمًا كثيراً ومصنفات عديدة. انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤-١٧٠.

(٢) «العبودية»: ٥، نقلاً عن «نضرة النعيم»: ٢/ ٢٧٤١.

جميع جوانب حياة المسلم في سعيه لإحكام شعائر دينه وإتقان العمل لدنياه، قال الأستاذ سيد[1] - رحمه الله تعالى- في بيان الشمول في العبادات:

«أن يصبح النشاط الإنساني كله حركة واحدة، متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني: العبادة، العبادة التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شئون الخلافة.

وهذا التجمع النفسي والحركي هو ميزة الإسلام الكبرى، بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التي تواجه النفس البشرية في الكون كله، ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنساني، ففي الإسلام -وحده- يملك الإنسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته، وأن يعمل لله وهو

---

(١) سيد بن قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد سنة ١٣٢٤ بقرية «موشا» في أسيوط. تخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» وعيّن مدرسًا للعربية فموظفًا في ديوان وزارة المعارف ثم مراقبًا فنيًا بالوزارة. أوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم إلى أمريكا ثلاث سنوات. انضم إلى الإخوان المسلمين فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه إلى أن صدر الأمر بإعدامه فأعدم رحمه الله تعالى سنة ١٣٨٧، له مصنفات جليلة رائعة، وفي بعضها قليل من المؤاخذات بسبب النشأة الأدبية السابقة. وما أحسن كلمة الأستاذ علال الفاسي رحمه الله تعالى لما حصلت نكبة سنة ١٣٨٧هـ: ما كان الله لينصر حربًا يقودها قاتل سيد قطب. وانظر «الأعلام»: ٣/ ١٤٧، ١٤٨.

يعمل لمعاشه، وأن يحقق كماله الإنساني الذي يطلبه الدين في مزاولة نشاطه اليومي في خلافة الأرض، وفي تدبير أمر الرزق، ولا يتطلب منه هذا إلا أمرًا واحدًا: أن يخلص العبودية لله في الشعائر التعبدية، وكل عمل وكل نية، وكل نشاط وكل اتجاه، مع التأكد من أنه لا يتجاوز دائرة الحلال الواسعة، التي تشمل كل طيبات الحياة، فالله خلق الإنسان بكل طاقاته لتنشط كلها، وتعمل كلها، وتؤدي دورها، ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة، يحقق الإنسان غاية وجوده، في راحة ويسر، وفي طمأنينة وسلام، وفي حرية كاملة منشؤها العبودية لله وحده.

وبهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملاً متكاملاً، منهجًا يشمل الاعتقاد في الضمير، والتنظيم في الحياة - لا بدون تعارض بينهما- بل في ترابط وتداخل يعز فصله، لأنه حزمة واحدة في طبيعة هذا الدين، ولأن فصله هو تمزيق وإفساد لهذا الدين.

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة «الفقه».

ومع أنه كان المقصود به - في أول الأمر - مجرد التقسيم الفني، الذي هو طابع التأليف العلمي، إلا أنه -مع الأسف- أنشأ فيما بعد آثارًا سيئة في التصور، تبعته - بعد فترة- آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها، إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات»، بينما

أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط، الذي يتناوله «فقه المعاملات»! وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي.

ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة، أو يطلب فيه تحقيق هذا الوصف، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة، أولاً وأخيرًا.

وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم، ونظام الاقتصاد والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية وتشريعات الأسرة، وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج، ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى «العبادة» في حياة الإنسان، والنشاط الإنساني لا يكون متصفاً بهذا الوصف، محققًا لهذه الغاية -التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني- إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني، فيتم بذلك إفراد الله - سبحانه - بالألوهية، والاعتراف له وحده بالعبودية، وإلا فهو خروج عن العبادة، لأنه خروج عن العبودية، أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله، أي خروج عن دين الله!

وأنواع النشاط التي أطلق عليها الفقهاء اسم «العبادات» وخصوصًا بهذه الصفة -على غير مفهوم التصور الإسلامي- حين تراجع مواضعها في القرآن تتبين حقيقة بارزة لا يمكن إغفالها، وهي أنها لم تجئ مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق

عليها الفقهاء اسم «المعاملات»، إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة في السياق القرآني ومرتبطة في المنهج التوجيهي، باعتبار هذه كتلك شطرًا من منهج «العبادة» التي هي غاية الوجود الإنساني، وتحقيقًا لمعنى العبودية، ومعنى إفراد الله - سبحانه - بالألوهية.

إن ذلك التقسيم -مع مرور الزمن- جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا مسلمين إذا هم أدوا نشاط «العبادات» -وفق أحكام الإسلام- بينما هم يزاولون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله ولكن من إله آخر! هو الذي يشرع لهم في شئون الحياة ما لم يأذن به الله!

وهذا وهم كبير، فالإسلام وحدة لا تنفصم.

وهذه هي الحقيقة الكبيرة، التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه، ويريد في الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الإنساني.

إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني - وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة، يقوم عليها بناء الحياة كله- بل إن أهميتها تتجلى كذلك في حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق، فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله، وحين يصبح كل نشاط فيها - صغر

أم كبر - جزءًا من هذه العبادة، أو كل العبادة، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامل فيه، وهو إفراد الله - سبحانه - بالألوهية، والإقرار له وحده بالعبودية ، هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه، ولا يبلغ كماله الإنسان إلا في تحقيقه.

وبعد فإن هذا الشمول -بكل صوره- فوق أنه مريح للفطرة البشرية، لأنه يواجهها بمثل طبيعتها الموحدة، ولا يكلفها عنتًا، ولا يفرقها مِزَقًا، هو في الوقت ذاته يعصمها من الاتجاه لغير الله في أي شأن وفي أية لحظة، أو قبول أية سيطرة تستعلي عليها بغير سلطان الله، وفي حدود منهج الله وشريعته، في أي جانب من جوانب الحياة.

فليس الأمر والهيمنة والسلطان لله وحده في أمر العبادات الفردية، ولا في أمر الآخرة - وحدها- بل الأمر والهيمنة والسلطان لله وحده، في الدنيا والآخرة، في السماوات والأرض ، في عالم الغيب وعالم الشهادة، في العمل والصلاة، وفي كل نَفَس، وكل حركة، وكل خالجة، وكل خطوة، وكل اتجاه:

«وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ...»[1].

وهذا الشمول في العبادة هو الذي ضاع من المتأخرين فأصبح كثير من المسلمين اليوم لا يرى حرجًا في الربا وهو في الوقت نفسه من

(١) «خصائص التصور الإسلامي».

المصلين، وربما يصلي في المسجد ويحافظ على الجماعات، ولا يرى حرجًا في ارتكاب المعاصي في رمضان إذا أفطر بعد الصيام، ولا يجد بأسًا أن يحج ويخدع الناس ويغشهم، أو يحتال في تعامله معهم، وهكذا...

وقد علم النبي ﷺ الصحابة هذا المعنى، فقال لهم:

«وفي بضع أحدكم صدقة.

قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[1].

وقال: «ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة»[2].

وقصة الرهط الثلاثة عمدة في هذا الباب، فقد جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء

---

(١) صحيح مسلم: حديث رقم ١٠٠٦.
(٢) صحيح البخاري، رقم ٦٠١٢، كتاب الأدب.

رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وقيل لأم الدرداء: أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟ قالت: التفكر والاعتبار[2].

وهذا معاذ يقول لأبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنهما-:

«أما أنا فأنام وأقوم، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي»[3].

* * *

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، رقم ٥٠٦٣.

(٢) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ١/ ٢٧٢

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: ٦٩٢٣، ومسلم في صحيحه: رقم ١٦٥.

رابعاً: التوازن:

إن آفة أكثر المسلمين اليوم هو ضعف التوازن لديهم بين العبادات وسائر شئون الحياة، فبعض الموغلين بقوة في العبادة يضعف عن القيام بشؤون دنياه، وكثير من الساعين بقوة لدنياهم يهملون عباداتهم أو يهملون إقامتها على الوجه الصحيح، والتوازن بين العبادات وأمور المعاش من أعظم الأمور التي جاءت بها الشريعة الجليلة، ولقد كان الصدر الأول ﷺ يوازنون بين العبادة وأمور دنياهم، وقد تعلموا ذلك من نبيهم ﷺ فقد قال لعبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما-: «أنك لتصوم النهار وتقوم الليل؟

قلت: نعم.

قال: إذا فعلت ذلك هجمت له العين ونفهت له النفس[1]، لا صام من صام الأبد، صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله»

قلت: فإني أطيق أكثر من ذلك.

قال: فصم صوم داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفرُّ إذا لاقى»[2].

---

(١) هجمت العين: يعني نعس المرء، ونفهت النفس: كَلَّت وتعبت.

(٢) «صحيح البخاري» رقم ١٩٧٥ و ٥٠٥٢، كتاب الصوم، وكتاب فضائل القرآن.

وعن عبدالله بن عمرو قال:

«أنكحني أبي امرأة ذات حسب، وكان يتعاهد كَنَّته[١]، فيسألها عن بعلها فتقول له: نِعْم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشًا، ولم يُفَتِّش لنا كَنَفًا مذ أتيناه[٢]».

فلما طال ذلك عليه، ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: الْقَنِي به، فلقيته بعد، فقال: كيف تصوم؟

قلت: كل يوم.

قال: وكيف تختم؟

قلت: كل ليلة.

فقال: صم كل شهر ثلاثة أيام، واقرأ القرآن في كل شهر.

قلت: فإني أطيق أكثر من ذلك.

قال: صم ثلاثة أيام في الجمعة.

قلت: أطيق أكثر من ذلك.

قال: أفطر يومين وصم يومًا.

قلت: أطيق أكثر من ذلك.

---

(١) أي زوجة ابنه.

(٢) تعني أنه لم يقربها.

قال: صم أفضل الصوم، صوم داود: صيام يوم، وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة.

قال: فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ وذلك أني كبرت وضعفت، وكان يقرأ على بعض أهله السُّبُع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من الليل، ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئًا فارق عليه النبي ﷺ[1].

قال الإمام الذهبي[2]:

«وصح أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليالٍ، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث، وهذا كان في الذي نزل من القرآن، ثم بعد هذا القول نزل ما بقي من القرآن، فأقل مراتب النهي أن تُكره تلاوة القرآن كله في أقلَّ من ثلاث، فما فقه ولا تدبر من تلا في أقل من ذلك، ولو تلا ورتل في أسبوع ولازم ذلك لكان عملاً فاضلاً، فالدين يسر، فوالله إن ترتيل سُبُع القرآن في تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به

(١) صحيح البخاري رقم ١٩٧٥ و٥٠٥٢، كتاب الصوم، وكتاب فضائل القرآن

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله التركماني الذهبي محدث عصره، ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألف مصنفات جامعة نافعة، توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/ ١٠٠-١٢٣.

علمًا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر وكثرة الدعاء والاستغفار، والصدقة، وصلة الرحم، والتواضع، والإخلاص في جميع ذلك لَشُغلٌ عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين، فإن سائر ذلك مطلوب، فمتى تشاغل العابد بختمة في كل يوم فقد خالف الحنيفية السمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه ولا تدبر ما يتلوه.

هذا السيد العابد الصاحب كان يقول لما شاخ: ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ وكذلك قال له عليه السلام في الصوم، وما زال يناقصه حتى قال له: «صم يوماً وأفطر يوماً، صوم أخي داود عليه السلام»، وثبت أنه قال: «أفضل الصيام صيام داود» ونهى -عليه السلام- عن صيام الدهر، وأمر -عليه السلام- بنوم قسط من الليل، وقال: «لكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وكل من لم يَزُمّ نفسه في تعبده وأوراده بالسنة النبوية يندم ويترهب ويسوء مزاجه ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرءوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ، معلمًا للأمة أفضل الأعمال، وآمرًا بهجر التبتل والرهبانية التي لم يُبعث بها، فنهى عن سرد الصوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العَشْر الأخيرة ونهى عن العزبة للمستطيع ونهى عن ترك اللحم إلى غير ذلك من

الأوامر والنواهي، فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلَّ، ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة وجنبنا الهوى والمخالفة»[1].

وهذا سلمان ﷺ يزور أبا الدرداء: فرأى أم الدرداء مبتذلة فقال لها: ما شأنك؟

قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال له: كل.

قال: فإني صائم.

قال: ما أنا بآكل حتى تأكل.

قال: فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلَّيا.

فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال له النبي ﷺ صدق سلمان»[2].

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ٨٤.

(٢) صحيح البخاري رقم ١٩٦٨.

وهذا عمر الفاروق يجيء إلى باب عبدالرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنهما- فضربه فجاءت المرأة ففتحته إلى أن قال: وعبدالرحمن بن عوف قائم يصلي، فقال له - يعني عمر -: تجوز أيها الرجل[1]، فسلم عبدالرحمن حينئذ، ثم أقبل عليه فقال: ما جاء بك هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟

فقال: رفقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة، فانطلق نحرسهم... إلخ[2].

فهذا عمر ﷺ يوازن بين العبادة ومصالح المسلمين.

وعن طارق بن شهاب[3] أنه بات عند سلمان ينظر اجتهاده قال:

«فقام فصلى من آخر الليل، فكأنه لم ير الذي كان يظن، فذكر ذلك له، فقال سلمان: حافظوا على هذه الصلوات الخمس فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تُصَب المَقْتَلة، فإذا أمسى الناس كانوا على ثلاث منازل فمنهم من له ولا عليه، ومنهم من عليه ولا له، ومنهم من لا له ولا عليه، فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فقام يصلي حتى أصبح

---

(١) يعني خفف صلاتك.
(٢) «تاريخ الطبري»: ٤/ ٢٠٥
(٣) هو طارق بن شهاب بن عبدشمس البجلي الأحمسي، أبو عبدالله. رأى النبي صلى الله عليه وسلم وغزا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أكثر من مرة، ومع كثرة جهاده كان معدوداً من العلماء. مات سنة ٨٢، رضي الله عنه. انظر «سير أعلام النبلاء»: الجزء الثالث.

فذلك له ولا عليه، ورجل اغتنم غفلة الناس وظلمة الليل فركب رأسه في المعاصي فذلك عليه ولا له، ورجل صلى العشاء ثم نام فذلك لا له ولا عليه، فإياك والحَقْحَقَة وعليك بالقصد والدوام»(١).

وقوله «حافظوا على هذه الصلوات الخمس فإنهن كفارات لهذه الجراحات» يعني للسيئات، وقوله «ما لم تُصَب المَقْتَلة» يعني ما لم يرتكب الإنسان شيئًا من كبائر الذنوب، وهذا مقتبس من قول رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفراتٌ ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(٢).

وقوله: «فإياك والحقحقة» يعني المبالغة في أداء النوافل، وأصل الحقحقة المُتعب من السير، وقيل: هو أن تحمل الدابة على ما لا تطيقه(٣).

وقوله: «وعليك بالقصد والدوام» يعني الاعتدال في أداء العبادات بحيث لا يطغى جانب على الجوانب الأخرى ثم الاستمرار على ذلك، أما التعمق والمبالغة في بعض النوافل فإنه قد يؤدي إلى تركها بعد ذلك بالكلية.

---

(١) «مصنف عبدالرزاق» رقم ١٤٨ و ٤٧٣٧، وذكر الهيثمي أن الطبراني أخرجه وقال: رجاله موثقون «مجمع الزوائد» ١/ ٣٠٠، وحسن المنذري إسناده: «الترغيب» ١/ ٤٣٧.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الطهارة باب ٥.

(٣) «النهاية في غريب الحديث»: ١/ ٤١٣.

وقال الشعبي[(١)] رحمه الله تعالى:

«خرج ناس من أهل الكوفة إلى الجَبّانة[(٢)] يتعبدون واتخذوا مسجدًا وبنوا بنياناً، فأتاهم عبدالله بن مسعود ﷺ فقالوا: مرحبًا بك يا أبا عبدالرحمن لقد سرنا أن تزورنا، قال: ما أتيتكم زائرًا، ولست بالذي أترك حتى يُهدم مسجد الجبان، إنكم لأهدى من أصحاب رسول الله ﷺ؟! أرأيتم لو أن الناس صنعوا كما صنعتم مَن كان يجاهد العدو، ومن كان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ومن كان يقيم الحدود؟ ارجعوا فتعلموا ممن هو أعلم منكم، وعلموا مَن أنتم أعلم منهم، قال: واسترجع، فما برح حتى قلع أبنيتهم وردهم»[(٣)].

وقال أبو نضرة:

قال رجل منا يقال له جابر أو جويبر: طلبت حاجة إلى عمر في خلافته، فانتهيت إلى المدينة ليلاً، فغدوت عليه وقد أُعطيت فطنة ولسانًا - أو قال منطقاً - فأخذت في الدنيا فصغرتها فتركتها لا تسوى شيئًا، وإلى جنبه رجل أبيض الشعر أبيض الثياب، فقال لما فرغت: كل قولك كان مقاربًا إلا وقوعك في الدنيا، وهل تدري ما الدنيا؟ إن الدنيا فيها

---

(١) عامر بن شراحيل الشَّعبي، أبو عمر. ثقة مشهور. فقيه فاضل، قال مكحول: ما رأيت أفقه منه. مات بعد المائة عن نحو ثمانين سنة رحمه الله تعالى. انظر التقريب: ٢٨٧.

(٢) أي إلى الصحراء.

(٣) شرح السنة (١٠/ ٥٤، ٥٥).

بلاغنا -أو قال زادنا- إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي يُجزى بها في الآخرة، قال: فأخذ في الدنيا رجل هو أعلم بها مني، فقلت: يا أمير المؤمنين: من هذا الرجل إلى جنبك؟ قال: سيد المسلمين أبيّ بن كعب(١).

وقال معاذ بن جبل «مدارسة العلم تسبيح»(٢).

ورأت عائشة رضي الله عنها شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت لأصحابها:

«من هؤلاء؟

فقالوا: نُسّاك.

فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا»(٣).

وقال بُرد مولى ابن المسيب لسعيد بن المسيب(٤): «ما رأيت أحسن مما يصنع هؤلاء.

---

(١) «الأدب المفرد»: ١٦٨ رقم ٤٧٦.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم»: ٢٠.

(٣) «مدارج السالكين»: ١/ ٥٢١.

(٤) سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المخزومي، أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار، قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه، مات بعد سنة تسعين، وقد ناهز الثمانين. انظر «التقريب»: ٢٤١.

قال سعيد: وما يصنعون؟

قال: يصلي أحدهم ثم لا يزال صافاً رجليه حتى يصلي العصر، فقال: ويحك يا برد أما والله ما هي بالعبادة، إنما العبادة التفكر في أمر الله والكف عن محارم الله»[1].

وما أحسن ما قاله بلال بن سعد[2] -وهو من كبار التابعين-:

أدركتهم - أي الصحابة ﷺ- يشتدون بين الأغراض[3] يضحك بعضهم إلى بعض، فإذا كان الليل كانوا رهباناً.

* * *

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٢٤١.

(٢) الإمام الرباني الواعظ، أبو عمرو شيخ أهل دمشق. كان بليغ الموعظة، حسن القصص، نفاعًا للعامة. توفي سنة نيف وعشرة ومائة. انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٥٨٤.

(٣) الأغراض هي التي توضع هدفًا لرمي السهام.

خامسًا: الخشوع والخضوع:

إن معنى العبادة في اللغة يدور على الطاعة بالخضوع والتذلل بل غاية التذلل، وإظهار ذلك[1].

ولذلك فهي لا ينبغي أن تكون إلا لله سبحانه وتعالى.

وأحسن العبادة ما خالطها الخشوع والخضوع، فقد قال -تعالى- عن الأنبياء العظام:

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والعبادة بلا خشوع تورث آفات عديدة، منها:

أن المرء يمل منها ويتمنى أن لو لم تكن قد فُرضت في الإسلام، وهذا الملل يورث صاحبه عدم الرغبة في الإكثار من العبادة، فيحرمه من أجور عظيمة، ويفقده حلاوة التعبد والمناجاة.

ومنها أنها لا تورث فاعلها الخشية من الله -تعالى- فتصير ذات أثر ضعيف أو منعدم في إقامة العبد على الصراط، وإبعاده عن الولوغ في الكبائر، وهذا يفسر قلة استفادة المسلمين من العبادات المتكررة - كالصلاة والحج والعمرة وأداء الزكاة والصيام وغير ذلك- في تقويم مسيرتهم، وتصحيح أحوالهم، ومعالجة بعدهم عن الله -تعالى- وبمعنى

(١) «المفردات في غريب القرآن»، و«القاموس المحيط»، «المعجم الوسيط»: ع ب د، وانظر «نضرة النعيم»: ٧/ ٢٧٤٢.

آخر إن العبادات صارت تؤدى على أنها عادات عند أكثر المسلمين، هذا وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال جَلّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[(١)].

وقال تعالى في الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فهذه النصوص وأمثالها توضح عظم أثر العبادة إذا أُديت على وجهها.

وقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خشوعًا وخضوعًا، وتعلم أصحابه ﷺ الخشوع والخضوع منه ﷺ فصاروا هم القدوة في هذا الباب، والغاية التي يأتسي بهم فيها مَن جاء بعدهم.

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.

فهذا عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- كان إذا قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ بكى حتى يغلبه البكاء[١].

وهذا عبدالله بن الزبير رضي الله عنه كان إذا صلى في المسجد الحرام سقط على رأسه الطير ظنًا منها بأنه عمود لخشوعه وثباته وعدم تحركه مدة طويلة.

وهذا الحسن بن علي رضي الله عنهما إذا توضأ وفرغ من الوضوء تغير لونه، فقيل له في ذلك، فقال: حُقّ لمن أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه[٢].

وكان علي بن الحسين إذا قام إلى الصلاة أخذته رِعْدة، فقيل له، فقال: تدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي؟.

وعن مالك:

أحرم علي بن الحسين فلما أراد أن يلبي قالها، فأغمي عليه، وسقط من ناقته فهُشِّم، ولقد بلغني أنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات، وكان يُسمَّى زين العابدين لعبادته[٣].

- وكان إذا دخل في الصلاة لا يشعر بمن عنده حتى إن الرجل ليجلس عنده يريد منه حاجة وهو يصلي فلا يلتفت إليه حتى ينهي

(١) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ١/ ٣٦٧، ٣٦٨.
(٢) وفيات الأعيان: ٢/ ٦٢٩.
(٣) «صلاح الأمة»: ٢/ ٣٨٣، نقلاً عن تاريخ دمشق.

صلاته وهو لم يُجِلَّ بها، بل قد وقع حريق في بيته وهو ساجد فجعلوا يقولون: يا ابن رسول الله: النار، فما رفع رأسه حتى طفئت، فقيل له في ذلك فقال: ألهتني عنها النار الأخرى(١).

وهذه هي الصلاة التي قال حسان بن عطيه(٢) واصفًا صاحبها وواصفاً الآخر الذي لا يخشع في صلاته:

«إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما من الفضل كما بين السماء والأرض؛ وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله ﷻ، والآخر ساهٍ غافل»(٣).

وقد حج محمد بن علي، أبو جعفر الباقر(٤)، فلما دخل المسجد الحرام نظر إلى البيت فبكى حتى علا صوته، فقال له أفلح مولاه: بأبي أنت وأمي إن الناس ينظرون إليك فلو رفقت صوتك قليلاً.

(١) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٥١٨.
(٢) هو الإمام الحجة أبو بكر حسان بن عطية المحاربي، بالولاء، الدمشقي. حدث عن بعض الصحابة. كان عابداً مجتهداً. بقي إلى حدود سنة ١٣٠، رحمه الله تعالى.
انظر «سير أعلام النبلاء»: الجزء الخامس.
(٣) «الوابل الصيب من صحيح الكلم الطيب»: ابن القيم: ص ٣٦ (طبعة دار البيان).
(٤) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، ثقة فاضل، مات سنة بضع عشرة ومائة، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٤٩٧.

فقال: ويحك يا أفلح ولم لا أبكي؟ لعل الله ﷻ أن ينظر إليّ برحمة فأفوز بها عنده غدًا

قال: ثم طاف بالبيت، ثم جاء حتى ركع عند المقام، فرفع رأسه من سجوده، فإذا موضع سجوده مبتل من دموع عينيه[١].

☆ ☆ ☆

(١) «مجمع الأحباب»: ٢/ ١٩٧.

سادسًا: الطول والكثرة:

كان للصدر الأول من الصحابة ﷺ، وآل بيت النبي ﷺ عناية بالعبادة، خاصة الصلاة؛ فيطيلونها، فتمتد إلى عدة ساعات، وهذا من فقههم ﷺ واتباعهم سنة رسول الله ﷺ إذا انفرد، فقد كان يطيل جدًا ﷺ فهذا عبدالله ابن مسعود ﷺ يقول:

«صليت مع النبي ﷺ ليلةً فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء.

قلنا وما هممت؟

قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ»[1].

وقيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟

قال: لا تطيقونه، الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما.[2]

وكان لابن عمر - رضي الله عنهما- مِهْراس فيه ماء فيصلي فيه ما قُدر له، ثم يصير إلى الفراش يغفي إغفاءة الطائر، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي، يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمس[3]، وكان لا يصوم في السفر، ولا يكاد يفطر في الحضر[4].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التهجد: باب طول القيام في صلاة الليل.
(٢) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ١/ ٣٦٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) «سير أعلام النبلاء»: ١/ ٣٦٨.

وقال مجاهد[١]: كان عبدالله بن الزبير ﷺ إذا قام إلى الصلاة كأنه عود، وحدّث أن أبا بكر الصديق ﷺ كان كذلك وقوله: «كأنه عود» بسبب الخشوع والإطالة.

وقال أحد السلف: ركع ابن الزبير يومًا ركعة، فقرأنا بالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه!![٢].

وقد قسم ابن الزبير الدهر على ثلاث ليال: فليلة هو قائم حتى الصباح، وليلة هو راكع حتى الصباح، وليلة هو ساجد حتى الصباح[٣].

وهذه عبادة طويلة لا يصبر عليها إلا العظماء، جعلنا الله منهم.

واشتهر عن علي بن الحسين أنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة[٤]، وقد حاولت تصور هذه الصلاة وكم تستغرق من الوقت فإذا هي قريبة من ست عشرة ساعة، وهذا لا يكون إلا لمتفرغ للعبادة تماماً، وقد كان علي بن الحسين هكذا، والله أعلم.

---

(١) مجاهد بن جَبْر المكي، أبو الحجاج، المخزومي بالولاء. ثقة. إمام في التفسير وفي العلم. مات سنة إحدى ومائة وله ثلاث وثمانون سنة، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٥٢٠.

(٢) «صلاح الأمة»: ٢/ ٣٧١ نقلاً عن «سير أعلام النبلاء» وتاريخ دمشق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «مجمع الأحباب»: ٢/ ١٩٢.

وقد كان علي بن عبدالله بن عباس[١] -رحمه الله تعالى، ورضي عن أبيه وجده- يصلي كل يوم ألف سجدة[٢]، أي خمسمائة ركعة، يعني نصف ما كان يصلي علي بن الحسين، وهذا -عندي- أمثل وأحسن وأقرب، والله أعلم.

وكان موسى الكاظم[٣] يُدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده، فقد دخل مسجد رسول الله ﷺ فسجد سجدة في أول الليل فسُمع وهو يقول في سجوده: عظم الذنب عندي فليحسن العفو من عندك يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة فجعل يرددها حتى أصبح.[٤]

وعن عبدالله بن محمد بن عقيل قال:

كنت أنا وأبو جعفر الباقر[٥] نختلف إلى جابر[٦] لأكتب عنه في

(١) علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب. الإمام القانت أبو محمد الهاشمي المدني السجاد. ولد عام قتل الإمام علي، توفي سنة ١١٨ هـ عن ٧٨ سنة، وهو جد الخلفاء من بني العباس. انظر «تهذيب الفضلاء»: ٢/ ٦٠٣، ٦٠٤.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٠٩.
(٣) موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الإمام القدوة السيد أبو الحسن العلوي. ذكره أبو حاتم فقال. ثقة صدوق، إمام من أئمة المسلمين. توفي سنة ١٨٣ هـ عن ٥٥ سنة. انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٠، ٦٥١.
(٤) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٦٥٠.
(٥) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، ثقة فاضل، مات سنة بضع عشرة ومائة، رحمه الله تعالى. انظر: «التقريب»: ٤٩٧.
(٦) هو جابر بن عبدالله بن حرام، الصحابي المعروف، ﷺ.

الرواح، وبلغنا أن أبا جعفر كان يصلي في اليوم والليلة مئة وخمسين ركعة(١).

قال الشاطبي(٢) الأصولي، رحمه الله تعالى:

«كم من رجل صلى الصبح بوضوء العشاء كذا وكذا سنة، وسرد الصيام كذا وكذا سنة، وكانوا هم العارفين بالسنة، لا يميلون عنها لحظة، وروي عن ابن عمر وابن الزبير أنهما كانا يواصلان الصيام، وأجاز مالك - وهو إمام في الاقتداء- صيام الدهر، يعني إذا أفطر أيام العيد، والآثار في هذا المعنى كثيرة عن الأولين، وهي تدل على الأخذ بما هو شاق على الدوام، ولم يعدهم أحد بذلك مخالفين للسنة، بل عَدُّوهم من السابقين، جعلنا الله منهم»(٣).

ولا أحب أن أخلي بحثي هذا من ذكر امرأة من آل بيت النبي ﷺ من الصدر الأول، وهي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن

(١) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٥٢٢.

(٢) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخميّ الغرناطيّ، أبو إسحاق الشهير بالشاطبيّ. الإمام العلامة المحقق، القدوة الحافظ المجتهد. كان أصوليًا، مفسرًا، فقيهًا، محدثًا، لغويًا، ثبتًا، ورعًا صالحًا زاهدًا، سنيًا. له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة مع الحرص على اتباع السنة واجتناب البدعة، وكان من أئمة المالكية. ألف تآليف نفيسة، وله نظم رائق. توفي سنة ٧٩٠ رحمه الله تعالى. انظر «نيل الابتهاج»: ٤٨-٥٢.

(٣) «الاعتصام».

علي[١]، فقد كانت - رحمها الله تعالى- زاهدة تقية، تقوم الليل وتصوم النهار، حتى قيل لها: ترفقي بنفسك لكثرة ما رأوا منها، فقالت: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبة لا يقطعها إلا الفائزون، حجت ثلاثين حجة.

وقال فيها الحافظ ابن كثير[٢]: كانت عابدة، زاهدة، كثيرة الخير، وقد توفيت وهي صائمة فألزموها الفطر، فقالت: واعجباه أنا منذ ثلاثين سنة أسأل الله -تعالى- أن ألقاه صائمة، أفطر الآن؟ هذا لا يكون[٣].

* * *

---

(١) نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي رضي الله عنهما ورحمها، العلوية الحسنية، تحولت من المدينة النبوية المنورة إلى مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق، وتوفيت بمصر سنة ٢٠٨، وكانت من الصالحات العابدات. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ١٠٦، ١٠٧.

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير البصري: عماد الدين، الحافظ الإمام، ولد سنة سبعمائة، ونشأ بدمشق واشتغل بالحديث، وله عدة مصنفات سارت في البلاد، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، توفي سنة ٧٧٤، «انظر الدرر الكامنة»: ١/ ٣٩٩، ٤٠٠.

(٣) «صلاح الأمة»: ٢/ ٤٩٩، ٥٠٠.

سابعًا: المداومة والاستمرار

قد كانت عبادة النبي ﷺ قائمة على المداومة والاستمرار، وكان ذلك سمة في حياته ﷺ وقد روت عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قوله:

«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»(١)

وكان علي بن الحسين - رحمه الله تعالى- يقضي ما فاته من صلاته بالنهار بالليل، ثم يقول: يابني: ليس هذا عليكم بواجب، ولكن أحب لمن عوّد نفسه شيئًا من الخير أن يداوم عليه(٢)، وكان لا يترك صلاة الليل سفرًا ولا حضرًا(٣).

وقد فهم الصحابة ﷺ هذا وعلّموه مَن بعدهم، فهذا طارق بن شهاب يبيت عند سلمان فقال واصفاً حالَه:

«فقام فصلى من آخر الليل، فكأنه لم يَرَ الذي كان يظن، فذكر ذلك له، فقال سلمان: حافظوا على هذه الصلوات الخمس فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تُصَب المَقْتَلَة، فإذا أمسى الناس كانوا على ثلاث منازل:

فمنهم مَن له ولا عليه، ومنهم من عليه ولا له، ومنهم من لا له

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

(٢) «مجمع الأحباب»: ٢/ ١٨٧.

(٣) المصدر السابق.

ولا عليه، فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فقام يصلي حتى أصبح فذلك له ولا عليه.

ورجل اغتنم غفلة الناس وظلمة الليل فركب رأسه في المعاصي فذلك عليه ولا له.

ورجل صلى العشاء ثم نام فذلك لا له ولا عليه، فإياك والحَقْحَقَة وعليك بالقصد والدوام»[1].

وقد سبق شرح بعض مفردات هذا الأثر قريبًا.

❊ ❊ ❊

(١) مصنف عبدالرزاق رقم ١٤٨ و ٤٧٣٧، وذكر الهيثمي أن الطبراني أخرجه وقال: رجاله موثقون: «مجمع الزوائد» (١/ ٣٠٠)، وحسن المنذري إسناده – «الترغيب»: (١/ ٤٣٧).

المراجع

- القرآن الكريم.
- «العبادات القلبية وأثرها في حياة المؤمنين» لكاتب هذا البحث.
- نشر دار المجتمع للنشر والتوزيع. جدة. الطبعة السادسة سنة ١٤٢٧/٢٠٠٦.
- مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب: مختصر حلية الأولياء: للشيخ محمد بن الحسن الحسيني الواسطي (ت ٧٧٦).
- نشر دار المنهاج. جدة. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣/٢٠٠٣.
- «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: السير للحافظ الذهبي، والنزهة لكاتب هذا البحث.
- نشر دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة التاسعة. ١٤٢٩/٢٠٠٨.
- «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ» موسوعة بإشراف د. صالح بن حميد، وعبدالرحمن بن مَلُّوح.
- نشر دار الوسيلة. جدة. الطبعة الثانية سنة ١٤١٩/١٩٩٩.
- «خصائص التصور الإسلاميّ»: الأستاذ سيد قطب.
- نشر دار الشروق. القاهرة.

❊❊❊

الفهرس

مؤلفات

محمد بن موسى الشريف





الترقيم الدولي I.S.B.N



